تاريخ فكرة إعجاز القرآن

منذ البعثة النبوية حتى العصر الحاضر، مع نقد وتعليق

- ٢ -

رأيي في إعجاز القرآن :

والذي أراه أنا هو أن القرآن باغتهم بمميزات فيه أدركوا جمالها وعجزهم عن مثلها . ومن هذه المميزات ما يرجع الى أسلوب القرآن الغريب الذي جاء مخالفاً لأساليبهم في الكلام وهي المميزات الظاهرة الواضحة التي يمكن حدها والإشارة اليها . ومنها ما هو داخلي يدرك بالذوق ويصعب بيانه وتعليله ، بل قد يكون متعذراً .

فمن هذه المميزات الواضحة الخاصة بأسلوب القرآن افتتاح آياته وسوره بما لا عهد للعرب به ، كالحروف المتقطعة في أوائل السور ، فإنها كالمفتاح الموسيقي للآيات التي بعدها ، وتوجيهه الخطاب في مثل قوله : يأيها الذين آمنوا ، يأيها الذين أسرفوا على أنفسهم . ومنها انتهاء هذه الآيات بفواصل موسيقية تنتهي بحرف ساكن قبله حرف لين أو بحرف لين قبله حرف صوتي مما يعطي ضرباً مستعذباً خاصاً من الموسيقى . ومنها هذا الضرب من الموسيقى الداخلية الناتجة من موسيقى الألفاظ مفردة ومركبة بعضها مع بعض . ومنها هذه المواضع التي تصلح للوقف في خلال الآيات والتي يتفق الوقف فيها مع أداء المعاني الجزئية في الجمل مما يضطر القارئ الى التمهل في القراءة وتدبر المعنى وترتيل القراءة . ومنها توافق الحروف في أواخر الآيات أو تقاربها مما يشبه السجع ، ولكنه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لا بقاس به من حيث استعذاب النفوس له . ومنها هذا التقارب في مقدار الجمل ، والانسجام فيما بين الفاظها المفردة وتراكيبها ، حتى لكأنها تجري على وزن خاص .

وأما الشيء الداخلي المعجز في القرآن والذي يدرك بالذوق فهو أنه قد حوى صفات الادب الخالد ومميزاته . وهذا ما جعل المتأخرين من العرب ومن تعلموا العربية يدركون إعجازه ويتذوقون جماله . وهذا ما جعله لا يخلق على التكرار ، ولا يسرع الملل الى قارئه مهما أعاده ، إذا لم يكن معارضاً متحيزاً أو متحاملاً .

هذه المميزات التي تجعل منه أدباً خالداً تظهر في الفكرة العامة السامية التي يقول بها القرآن والتي تجعل فيه وحدة موضوعية غائية تسعى للمثل الأعلى وتحقيق خير الانسانية وتظهر في العاطفة الصادقة القوية العميقة التي تنبث فيه ويستشفها القارئ له من ثنايا آيه وسوره وتثيرها التلاوة في نفسه فيشعر أن روحاً نورية خفية تحمله من عالم الارض لتحلق به في عالم السماء ، ويدرك أن القرآن يفتح عينيه ليرى المثل العليا جلية بهية قريبة المنال اذ صمم العزم على سلوك طريقها .

وتظهر هذه المميزات في تعاليمه الرفيعة وقيمه الأخلاقية التي تسعى لتنظيم الكون برغم بساطتها وفي هذه البساطة سر من أسرار جمالها . وتظهر في الخيال الخصب الذي يصور الندم وعذاب الضمير وآلام النفس وأفراحها وتعاطف البشر ، ويصور الجنة والنار وعبر من مضى وقضى من الأمم . وتظهر في أسلوبه العظيم الذي أدى ما يراد إبلاغه الى الناس بأجمل موسيقى وخير أداء فترى المعنى ينساب الى النفس مع انسياب الألفاظ الى السمع فكأن الكلام يقع في القلب لا في الأذن وترى الروح فيه يخاطب الروح وتدرك منه معرفة منشئه بالنفس البشرية وحسن التأتي في مخاطبتها مما حمل بعض الباحثين الحديثين على القول بالإعجاز النفسي للقرآن .

هذه الصفات التي تجعل من القرآن أدباً خالداً هي التي أذهلت عقول الجاهليين فحاروا فيما يقولون فيه : أشعر هو أم سحر ، أكلام بشر هو أم كلام فوق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

طاقة البشر . وهذه الصفات نفسها هي التي ساقت بعض علماء المسلمين لأن يقولوا : إن القرآن معجز لأن الله يحيط بالألفاظ والمعاني فيقدّ الألفاظ على أقدار المعاني فينتظم منها ما يسحر اللبّ ويأخذ بالقلب . وهي التي ميّزت فن القرآن عن غيره من فنون الأدب ، وأدت ببعض العلماء ان يردّوا على من يتساءل : « لماذا لم ينزل القرآن شعراً من جنس كلام العرب الذي برعوا فيه حتى تصح المقارنة بينهما » بأنه لو كان شعراً لم يكن خارقاً للعادة ، ولم يكن جديداً ، ولم تكن له طلاوته ، وبأن القرآن على الرغم من أنه يتناول أبحاثاً من طبيعتها ألا تتناول في أسلوب فصيح بليغ لأنها تعبر عن فكرة مجردة أو عن واجبات دينية اجتماعية فهو يعبر عنها فيما هو الغاية في الجمال والفصاحة .

ونتساءل بعد هذا أليس من سبب لعجز العرب عن المعارضة غير سحر القرآن وعجز العرب ، إذ أن من المؤكد أن ثقافتهم حينئذ برغم تقدمها النسبي لم تكن تسمح لهم بوضع تشريع راق ، ولِمَ لم يحاولوا بالفعل أن يعارضوا القرآن وقد ثبتوا طويلاً على تكذيب الرسول ، فإننا لا نسلّم بأنهم جميعاً كانوا يؤمنون بأنه صادق ، وأنهم إنما كانوا يظهرون غير ما يبطنون أنفة ومكابرة وجحوداً ، بل لا جرم أن كثيراً منهم لم تتقبل أذهانهم فكرة الوحي واتصال الأرض بالسماء . فهذا أبو سفيان بن حرب الأموي يأتي النبي مستلماً قبيل فتح مكة فيقول له النبي : أما آن لك أن تشهد أني رسول الله فيقول : « أما هذه يا ابن أخي ففي النفس منها شيء » .

واذا كان في نفوس ابي سفيان وأمثاله شيء من نبوة محمد فلِمَ لم يعارضوه ويخملوه ، إذا كان ذلك في استطاعتهم ، بل لماذا لم يحاول ابو سفيان نفسه معارضته مع اعتقاده بكذبه . لا نستطيع أن نخرج من هذا إلا بأن بعضهم كانوا يشعرون بعجزهم عن ذلك ، وبأن بعضهم كمن ذكرنا قبل حاول المعارضة وفشل .

ويبدو أن مفردات الألفاظ لم تكن هي التي تعوزهم لو أرادوا معارضة القرآن ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لأن القرآن لم يستعمل إلا ألفاظاً مستعملة في بيئتهم . ولكن كان بموزهم الأفكار الخصبة التي تربطها وحدة شاملة يمكن أن تؤلف شريعة . فبلاغة القرآن التي أدهشتهم لم تقم على اللفظ والسبك والموسيقى فقط ، فهذا جانب يسير منها . والجانب الأكبر هو تلك الغاية الاصلاحية التي يغذيها تفكير ناضج عميق شامل بعيد النظر ، وتغذيها عاطفة متأججة وخيال خصب وروح سام يتوخى تحقيق هدف هو مثل أعلى للحياة البشرية يتيسر تحقيقه .

فيمكن المباراة أن يأتوا ببيان ساحر . وهذا البيان يجب أن يكون من الجنس الذي يأتي به النبي — وهذا بدهي وان لم ينصّ عليه — بحيث يقرعون الحجة بالحجة ويبينون فساد شريعة النبي . وهذا ما كان بموزهم .

هذا إذا نظرنا الى الأمور نظرة واقعية صرفة أما اذا أدخلنا الايمان الديني في الميزان فمن السهل أن نقول بأنهم بشر ينقطعون عن أن يأتوا بكلام يضارع كلام الله .

ومن جهة ثانية نرى أن النبي قد جاءهم بتعاليم اجتماعية لا يتأتى أن ينكروا جمالها وسموّها فينقضوها بضدها ، على ما فيها من إضرار عظيم بمصالحهم الخاصة . وما كان في مقدورهم مهما حسن كلامهم أن يحسّنوا القبيح ويشوّهوا الأصول الجميلة التي تكلم عنها القرآن ببيان ساحر . وفي هذه الحالة ينقصهم صدق العاطفة والإيمان بالفكرة اللذان بدونهما يستحيل أن يكون أدبٌ خالد رائع .

ولو أنهم في سبيل قهر النبي وافقوه على أفكاره ودعوته للاصلاح وجاؤوا بمثل ما جاء به من سحر البيان لقضوا ، ولا شك ، على نفوذه وأثبتوا كذبه ولكن لهم الأمر والغلبة عليه . ولكنهم يفقدون عندئذ المكانة التي اكتسبوها في بيئتهم وكانوا جدّ حريصين عليها . وليس من السهل على الخصم أن يوافق خصمه على أفكاره ليقضي عليه ، فطبيعة الخصومة تقتضي التمسك بالرأي ولو ظهر فساده . ثم إن الخلاف الجوهري الذي هو خلاف على الأصول يزول حينئذ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والذي أعتقده أن ضعف ايمانهم بتعاليمهم وبنجاحهم وبقواهم المحدودة ما قام لقوة إيمان النبي وصدق يقينه وثقتـه بنجاحه . فما ادعى النبوة افتراء وابتغاء للكذب ، وإنما كان يشعر بأنه لا ينطق عن الهوى ، وأن ما يأتي به إن هو إلا وحي يوحى . ومهما كانت أسباب عجزهم فالواقع أنهم عجزوا . وكيف لا يعجزون ؟ وهم ما أحسوا في قرارات نفوسهم بالتجربة النفسية الدينية التي كان الرسول يشعر بها ولا أحسوا ببعضها وكيف يستطيعون مجاراته في التعبير عنها أو عما يضارعها .

ثم هل كان يفيدهم شيئاً لو جاؤوا بمثل القرآن سحرَ بيان أو أن حسم النزاع كان لا يتحقق إلا في نتيجة الصراع الروحي المادي بين فكرتين : فكرة المحافظة على القديم ، وفكرة التجديد وبناء المجتمع على أسس متينة في الدين والاجتماع والسياسة . وكان من الطبيعي أن يكتب البقاء للأصلح منهما ، وأن يذهب الزبد جفاءً ويبقى ما ينفع الناس في الأرض . وما كان الفقير المعدم الذي أطمعه النبي في زوال بؤسه بما وعده به من أموال الزكاة ، ولا العبد المظلوم الذي يطمح للحرية ، ولا الرجل المهين المغصوب الحق ، أن ينصتوا لأبي جهل مثلاً اذا عارض القرآن بما يخالف كلمة الاصلاح . وقد كان لتنظيم قوى المسلمين المادية تنظيماً حسناً أثر كبير في حسم النزاع بينهم وبين المشركين . ولم يكن ليحسم النزاع تحكيم البلغاء في أي الكلامين أبلغ : أكلام القرآن ، أم كلام أحد المشركين . ولو فشل النبي فهل كان يحفظ القرآن ، أو كان يحل محله أقوال المشركين وقرآن لهم آخر ؟ فالذي أعتقده أن النبي لو فشل أو قتل لفاز قرآن مسيلمة أو أمثال مسيلمة .

هذا التساؤل ليس إلا قولاً مجرداً لا ينتقص من إعجاز القرآن ، لأن الواقع أن العرب ، كما قلت سابقاً ، قد أدركوا جماله الفني ذوقاً وسليقة ، وأدركوا في باطنهم عجزهم عن مثله كما أدرك درجته من البلاغة أكثر البلغاء الذين جاؤوا منذ ابتداء الدعوة الاسلامية حتى الآن . واذا كان بعضهم كما سنرى بعد قد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أنكر إعجازه فإنه لم ينكر مبلغه من البيان ، ومن أنكرها كان من المكابرين مكابرة من ينكر ضوء الشمس الواضح .

ولا يغيبنّ عن البال أن لقوة العقيدة وضعفها أثراً كبيراً في القول بالإعجاز أو عدمه . فإن للقرآن في قلوب المؤمنين قوة قدسية تترك فيها حين تلاوته أثراً لا تتركه في قلوب الشاكين في أصل العقيدة الدينية أو المنكرين لها .

وعند هذا الحد أنتهي من الكلام على الجدال بين القرآن وبين العرب في عهد الرسول . وقد رأينا أنه كان زمن الرسول فكرة بسيطة قوامها التحدي الذي جاء في القرآن وعَجْزُ العرب عن أن يأتوا بمثله عجزاً ظاهراً يتبين من الروايات التاريخية التي بين أيدينا . وقد رأينا أن كلتي إعجاز ومعجزة لم تستعملا زمن النبي وإنما استعمل القرآن في مكانهما كلمات أخرى كالآية والبرهان والسلطان .

وترجع بساطة الفكرة في زمن النبي الى سذاجة الثقافة وعدم تعقدها قبل مخالطة الأعاجم ودراسة الفلسفة والعلوم الأخرى . وأنتقل الآن الى الكلام على فكرة الإعجاز ، وما آلت اليه لدى العلماء في مختلف العصور بعد هذا العهد ، وما طرأ عليها من الفكر الإضافية المستمدة من عناصر ثقافية جديدة لفحت الإسلام في العصور التي تلت عصر البعثة بلقاح فكري جديد .

* * *

الاعجاز بعد عصر النبي

مقدمة :

كان المسلمون في عهد النبي ومن بعده من الخلفاء الراشدين ولا سيما زمان أبي بكر وعمر لا يطيلون النظر في دراسة مسائل الدين ولا يثيرون قضاياه المتشابهة التي تبعث على الاختلاف في الرأي كالقول بالجبر أو الاختيار ومشاكل الصفات الإلهية والذات وذلك لضعف ثقافتهم في بادئ أمرهم وانعزالهم في جزيرتهم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وعزوفهم عن غيرهم من الأمم وعملاً بالحديث الشريف : « إن هذا الدين لمتين فأوغلوا فيه برفق فإنّ المنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » وكانوا ينظرون الى القرآن نظرة تسليم ورضى على أنه كتابهم الديني الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وبأنهم يجب أن يرجعوا اليه في عامة أمورهم الدينية والمعنوية وكلّ ما يختلفون فيه من قضايا وآراء تعرض لهم في حياتهم ويرونه المثال الأعلى في كل ما يحزبهم ومنه قوة البيان ومما يدلنا على ذلك قول ابن مسعود : « القرآن لا يتفه ولا يتشانّ » وقوله : «اذا وقعت في آل حم وقعت في روضات دمثات أتأنّق فيهن[1] » . وهذه النظرة الى القرآن هي التي توافق مقتضى حالهم ، فالقرآن هو الروح الذي يوجههم الى مراتب الكمال في الدين والدنيا ويأخذ بألبابهم وهو مصدر ثقافتهم الأكبر يرفده الشعر وما أثر من الأمثال والنثر .

وأمر المسلمون بعدم الخوض في بعض الأمور التي تثير الشبهات وتضعف الإيمان بإثارتها الشك عن طريق التفكير فيها فأطاعوا الأمر راغبين .

فلما قاموا بالفتوح في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان اختلطوا بسكان البلاد المفتتحة وكانوا أكثر منهم مدنية وثقافة اختلاطاً بدائياً عادياً لم تثر فيه مناقشات دينية بين الغالبين والمغلوبين أو أحاديث في مسائل دينية فلسفية وكانت العرب يومئذ على أشد ما كانوا من الحماسة لدينهم من جهة ولأن الجفاء والانكماش كانا بادئ بدء من الأمور الطبيعية بين الغالب الذي يخشى انقلاب المغلوب عليه والمغلوب الذي يتقي صولة الغالب ويخشى بطشه .

ثم قامت الفتن السياسية في زمن عثمان وعليّ ورافقتها المناقشات السياسية والعصبية فرجع المسلمون إلى القرآن ليحكم بينهم واضطروا الى تفسير آياته ولم يلبث الخلاف السياسي أن انقلب الى خلاف مذهبي يرجع الى الفكر في رسم خطوطه الأساسية وفي دعمه وتأييده فظهرت فرقة الشيعة في طورها الأول

(١) أي أتتبع محاسنهنّ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وهو طور مناصرة عليٍّ على خصومه الأمويين ، وجماعة تنصر هؤلاء ، وفرقة الخوارج التي نشأت بعد قضية التحكيم بين علي ومعاوية ، وجماعة سائر المسلمين الذين وقفوا من هذه الفرق المتطاحنة موقف الحياد . وحمل ذلك كله المسلمين على التفكير في معاني أكثر آيات القرآن تفكيراً عميقاً بعث فيهم حركة فكرية وإن كانت محدودة فهي قوية لما رافقها من النقد غير المقصود في طوره البدائي .

ثم زاد امتزاج المسلمين بشعوب البلاد التي كانت كما قلنا أكثر حضارة منهم وهي شعوب متعدّدة المذاهب وكل هذه المذاهب تخالف دينهم وتنكر صحته أشد الانكار ، ومن هذه البلاد الديار الشامية ، وكانت المناقشات الدينية قائمة فيها قبل الاسلام بزمن طويل على ساق وقدم تدور حول مسائل دينية فلسفية عويصة أهمها قضية لاهوتية المسيح أو ناسوتيته وقضية القضاء والقدر فكان حتماً عليهم أن يخوضوا غمار هذه المناقشات . واصطدموا في العراق وفارس بأتباع المذهب الزردشتي وأتباع المذهب المانوي وبغيرهم . فاضطروا الى مناقشة أصحاب الأديان في أديانهم والدفاع عن الاسلام الذي ينكره خصومهم . وكان في مقدمة المسائل التي تستدعي الجدل والمناقشة مسألة نبوة النبيّ ومسألة تحدّي القرآن للعرب في أن يأتوا بمثله ومسألة أنه وحي منزل من عند الله لا كلام ألفه الرسول . وشحذ المسلمون عقولهم لايجاد الحجج العقلية التي تؤيدهم وتقنع خصومهم أو تسكتهم فلم يجدوا أدلّ على صدق نبوة النبي من القرآن فاعتمدوا عليه وقالوا بإعجازه وجعلوه مساوياً لمعجزات سائر الأنبياء المرسلين .

وساعدت النهضة العلمية التي قامت في مدينتي البصرة والكوفة وما ظهر بينهما من اختلاف في الآراء اللغوية والنحوية كما ساعد الخلاف في الرأي بين الفرق الاسلامية نفسها على أنهاض العقول من كبوتها وإثارة المناقشات في كل ما يتصل بحياة المسلمين العامة دينية وسياسية واجتماعية ومنها مسألة إعجاز القرآن .

وكانت حرية الرأي محدودة في زمن الراشدين والأمويين والسيف مصلت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

على رؤوس المخالفين الذين يطعنون في الدين ، ولم تنطلق الألسن من عقالها إلاّ في أواخر حكم بني مروان . ومع ذلك فانّ أول طعن في القرآن ظهر مبكّراً في عهد الرسول أو الخلفاء الأول فقد عزي الى رجل يهودي يسمى لبيد بن الأعصم (١) أنه قال : إن التوراة مخلوقة فالقرآن كذلك مخلوق وذكر أن ابن اخته طالوت أشاع قوله هذا في الناس فدان به بنان بن سمعان الذي تنسب اليه الفرقة البنانية وتلقاه عنه الجعد بن درهم مؤدب مروان بن محمد آخر خليفة أموي وكان متهماً بالزندقة وخش الرأي واللسان ونسب اليه أنه أول من صرّح بالحملة على القرآن والردّ عليه وإنكار بعض ما ورد فيه وبأن فصاحته غير معجزة وبأن الناس يقدرون على مثلها وعلى ما هو خير منها وذلك بالاضافة الى قوله بخلق القرآن . وكان يصرّح بهذا في دمشق عاصمة الأمويين وكان الخليفة مروان بن محمد فيما يظهر يرى رأيه أو يسكت عنه حتى نسبه بعضهم اليه فقيل فيه مروان الجعدي . وهذا يدلنا على أن الأفكار الحرّة بدأت تظهر في آخر حكم الأمويين في صورة واضحة عظيمة الخطر لا في الخلاف بين المسلمين وغيرهم بل بين أهل السنة وغيرهم من أتباع المذاهب المناوئة لها وكان جميع المسلمين على اختلاف مذاهبهم يرجعون في هذا العهد الى القرآن لتأييد آرائهم .

ولما انتقلت الخلافة من الأمويين الى العباسيين زاد اختلاط الأعاجم بالعرب المسلمين وكان أكثر الخلفاء العباسيين يتسامحون في الأمور الدينية وفي كل شيء غيرها إلا ما يتعلق بأمور السياسة والملك . ونشّط الخليفة المنصور ، وهو الثاني منهم ، حركة الترجمة والتأليف فاطلع العرب على علوم الأعاجم من اليونان والفرس والهند مما لم يكن لهم به سابق علم فساعدهم ذلك على إعمال عقولهم وعلى انطلاق تفكير بعضهم تفكيراً حراً لا يقيده الا الاجتهاد العقلي .

ولما كانت الحرية الدينية مطلقة أو شبه مطلقة فقد وجدت في العهد العباسي

(١) نسب اليه أنه سحر النبي ، راجع صحيح البخاري في باب السحر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

منذ بدئه جماعة من المفكرين الأحرار ممن تختلف درجة تفكيرهم الحرّ قوةً وضعفاً . وكان من أشهرهم موالي منتصف القرن الثاني الهجري ابن المقفع وبشار بن برد وصالح بن عبد القدوس وعبد الحميد الكاتب ووالبة بن الحباب وهم كتاب أو شعراء وقيل إنهم كانوا يجتمعون معاً وينتقدون القرآن أو يحاولون أن يجاروه بالنظم والأسلوب ويسدّد هذا القول بصفة خاصة الى ابن المقفع وسنرى مقدار حظه من الصحة .

ويلاحظ في تاريخ الأدب العربي أن الاتهام بمعارضة القرآن قد وجه الى كثير من الكتاب والشعراء في العهود المختلفة منذ الأزمان الأولى حتى أواسط القرن الخامس الهجري تقريباً ويرجع ذلك فيما نرى الى قوة أساليب هؤلاء الأدباء وكيد خصومهم لهم والى أن كثيرين منهم كانوا من ذوي التفكير الحرّ أو ممن يميلون اليه . وممن اتهموا بالمعارضة عدا ابن المقفع أبو الطيب المتنبي المتوفى سنة ٣٥٤ هـ وأبو العلاء المعري المتوفى سنة ٤٤٩ هـ وابن سينا الفيلسوف .

والروايات التي تتهم هؤلاء الرجال تنتهي الى القول بأنهم كفّوا عن معارضة القرآن شعوراً منهم بعجزهم . ولعلّ الاتهام بالمعارضة قد بولغ فيه أو اختلق اختلاقاً لاثبات العجز عن مقارعة القرآن لأعظم شعراء العربية وكتابها والدلالة على أن هؤلاء إذا عجزوا فان من دونهم أعجز . ولعلّ نسبة المعارضة اليهم راجعة الى أنهم جاءوا في عهد كثرت فيه المذاهب والفرق الاسلامية واحتدم الجدل في قضايا الدين ومسألة الإعجاز منها خاصة فلا يبعد أن يكون بعض هؤلاء الأدباء الذين اتهموا بالمعارضة من ذوي التفكير الحرّ قد أدلوا برأيهم فنقل عنهم مبالغاً فيه واسترسل فيه الخيال فأضاف اليهم ما لم يقولوه وحمّل ألفاظهم فوق طاقتها مما لم يذهبوا اليه ، أو أن أحدهم قد شاع عنه الاستخفاف بالشعائر أو عدم القيام بها فوصم بإنكار الدين والرسالة وبمعارضة القرآن وغير ذلك من الأمور .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ونجد الى جانب هولاء المفكرين الأحرار جماعة يطعنون في القرآن وهم أصحاب المذاهب الأخرى الذين أتاحت لهم الحرية في خلافة المأمون أن يبينوا آراءهم في النبوة والقرآن على ما يبدو لهم فقد كان المأمون يقول بحرية الرأي ويحميه من تعصب العامة ولا يحول دون الادلاء بالآراء في مسائل الدين ولهذا نراه يناصر فكرة خلق القرآن التي طغت على كل شيء في هذا العصر حتى فكرة إعجاز القرآن التي أصبحت يدور الجدل فيها حينئذ على أنها جزء من مسألة خلق القرآن . ولا شك في أن أصحاب الأديان الأخرى كانوا يطعنون في النبوة والقرآن منذ عهد النبي ولم يكونوا في زمن الخلفاء الراشدين والأمويين يستطيعون الجهر بآرائهم وتدوينها كما فعلوا في هذا العصر . فنحن نرى عبد الله بن اسماعيل الهاشمي أحد رجال المأمون يكتب كتاباً الى صديق له مسيحي اسمه عبد المسيح بن اسحق الكندي يسأله فيه الدخول في الاسلام ويبين فضله على النصرانية ويذكر ان القرآن هو احدى المعجزات المؤيدة لرسالة النبي فيجيبه عبد المسيح على كتابه بكتاب طويل ينقض فيه حجج صديقه كلها وبخاصة ما يتعلق بالقرآن ويذكر بعض ملاحظات شديدة على الطريقة التي جمع بها القرآن وعلى إعجازه ولغته وأسلوبه ويحاول بكل الطرق الممكنة دحض فكرة مجاوزته طاقة البشر .

استمر هذان التياران تيار المفكرين الأحرار وتيار أصحاب الديانات الأخرى المناهضين حتى العصر الحاضر ونظن أنهما سيستمران الى الأبد ووقف أمامهما أول ما وقف في بدء العصر العباسي حين تكونت المذاهب الاسلامية المختلفة تيار فرقة المعتزلة التي ظهر بظهورها أول كلام علمي منظم في الإعجاز وذلك في منتصف القرن الثاني من الهجرة وبعد وجودها ردّ فعل لظهور طبقة المفكرين الأحرار ولمناهضة أرباب الديانات الأخرى للإسلام مناهضة عملية . وظهرت بعد فرقة المعتزلة في الدفاع عن فكرة الإعجاز جماعة المتكلمين ثم جماعة المفسرين ثم جماعة الأدباء المنافحين عن القرآن .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

نشأت فرقة المعتزلة ونشأت معها مسألة خلق القرآن وقدمه فيما نشأ معها من مسائل وتناول بحثهم في جملة ما تناول مسألة الإعجاز . وأشهر من تكلم فيها منهم النظام المتوفى سنة ٨٤٥ م وعيسى بن صبيح المزدار المتوفى سنة ٨٥٠ أو ٨٧٠ م والجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ ولم يؤلف كتاباً خاصاً فيها الا الجاحظ وكتابه في هذا الموضوع المسمى بنظم القرآن مفقود مع الأسف .

وستأتي آراء هؤلاء المعتزلة في حينها عند الكلام على كل منهم بمفرده مرتبين بحسب تاريخ وفاتهم . ولكل منهم رأي في الموضوع يخالف رأي الآخر .

وظهر علم الكلام مع ظهور المعتزلة وبدأ فيه الكلام على مسألة الإعجاز كما يظهر في القرن الثالث من الهجرة فقد ألف فيه كتاب الدين والدولة في الدفاع عن الاسلام وإثبات النبوة للرسول العربي ومؤلفه هو علي بن ربن الطبري[1] مولى المتوكل (٢٣٣ — ٢٤٧ هـ) وذكر في مقدمة الكتاب أن الخليفة أعان على تأليفه وأورد فيه براهين على نبوة الرسول واختص الباب السابع منه للقول بأن القرآن هو معجزة النبوة وتدل براهينه والصيغة التي تجلت فيها على أن هذه المسألة لم تطرق من قبل في علم الكلام وأنها لا تزال تؤخذ الى ذلك الوقت كما تؤخذ العقائد المسلمة التي يؤمن بها متبعوها إيمان العجائز وأن أبحاث علم الكلام ما كان ينظر فيها جميعها على أنها وحدة متماسكة إلا على الندرة وكان يبحث في كل منها مستقلاً عن الآخر في بعض الأحايين[2] .

وقد تكلم في هذه المسألة أيضاً ابو الحسن الأشعري (٣٢٤ هـ) وقد ضاعت كتبه الا قليلاً ولم يصل الينا منها الا كتاب « مقالات الإسلاميين » ووقفنا على شيء من أفكاره في كتب أخرى كتبت عنه .

---

(١) راجع ترجمته في إخبار العلماء بأخبار الحكماء وقد ذكر أسماء مؤلفات له ولم يذكر بينها كتاب لدين والدولة .

(٢) راجع مقال عبد العليم الهندي في المجلة الاسلامية :
The Islamic Culture N 1 and 2 (32) ° Years .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومن أشهر المتكلمين الذين بحثوا مسألة الإعجاز محمد من يزيد الواسطي (٣٠٦ هـ) وعلي بن عيسى الرماني (٣٨٤ هـ) واحمد بن محمد الخطابي (٣٨٨ هـ) وأبو بكر محمد الباقلاني (٤٠٣ هـ) ومحمد بن يحيى بن سراقة (٤١٠) والشريف المرتضى (٤٣٦).

وممن لم تصل كتبهم الينا متكلم كبير آخر هو أبو اسحاق الفرايني المشهور بلقب الأستاذ (٤١٨ هـ) فقد تعرّض لهذه المسألة في كتابه «جامع الجلي والخفي في أصول الدين في الردّ على الملحدين» وممن جعلوها جزءاً من كتبهم التي وصلت الينا ابن حزم (٤٥٦ هـ) في كتابه «الفصل في الملل والنحل» والغزالي (٥٠٥ هـ) في كتابه «الاقتصاد في الاعتقاد» والقاضي عياض (٥٤٤ هـ) في كتابه «الشفاء».

ويدور علم الكلام على الإلهيات، والنبوات، تتناول الأولى مسألة الإعجاز من حيث أن القرآن كلام الله والثانية تقوم بجملتها على فكرة الوحي ولا تصح النبوة من دون فكرة الإعجاز، ورأى المتكلمون أن القرآن يتحدى العرب في أن يأتوا بمثله ويصف نفسه بأنه فوق طوق البشر، والنبي يقول في حديث له: «ما من نبي إلاّ وأوتي ما مثله آمن عليه البشر وأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً» فاستلهموا منها براهين الإعجاز.

ويبدأ المتكلمون بحثهم غالباً بأن القرآن معجزة النبوة كما فعل القرآن نفسه حين ردّ على منكري الرسالة وهم يقدمون خمسة أحكام يناقشونها ويقولون إنها اذا ثبتت صحت رسالة النبي وهي:

١) أن النبي قد ظهر. ٢) أنه ادّعى النبوة. ٣) أنه قدّم معجزة. ٤) أنه تحدّى الآخرين ليأتوا بمثلها. ٥) أن الناس قد عجزوا عن معارضته ولم يستطعها أحد.

والحكمان الأولان مفروغ منهما لأنه لا ينكرهما أحد. وتحدي النبي العرب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لا ينكره أحد لأنه مذكور في القرآن في أكثر من آية . وهم يستدلون على أن من تحداهم النبي قد عجزوا عن مثل القرآن لأنهم لو جاءوا به لوصل الينا كما وصل الينا الشعر الجاهلي والخطب وأنه لا يصح أن يقال إن المسلمين أخفوها أو إنها ضاعت لأن الخصوم كانوا يحفظونها لو وجدت ، ولا يتأتى أن يجهلها المسلمون لو وجدت لأنها تنقض ما يؤيد عقيدتهم . ثم إن اعتقاد الناس قروناً وأجيالاً بأنه فوق الطاقة كاف لأن يبرهن أن أحداً لم يستطع الاتيان بمثله . وما ذكر من معارضات للقرآن كان سخيفاً لا يوازيه . وحجة المتكلمين العامة على إعجازه هي ان العرب إن عجزوا عن مثله فغيرهم أعجز وقد اختلفوا في وجوه إعجازه وسنرى رأي كل منهم على حدة بعد هذه المقدمة .

وكتاب الباقلاني بين كتب هؤلاء الباحثين هو الحلقة الوسطى بين الأبحاث التي تقدم لإثبات إعجاز القرآن وهو يلخص كلام من تقدمه من المؤلفين . واليه تنتهي ومنه تتفرع كل الكتب التي ألفت بعده .

وفي نهاية القرن الرابع أي لدن وفاة الباقلاني تقريباً (٤٠٣ هـ) أخذت أكثر نظريات الإعجاز في علم الكلام شكلها النهائي وسارت الأعصر التالية على غرار الأولى في التأليف وكانت مهمتها جمع ما قاله المتقدمون ولم تك مهمة المتكلم فيها وضع براهين جديدة بل وضع هذه البراهين في صور جديدة فالماوردي مثلاً بعد عشرين دليلاً على الاعجاز ولكن ليس فيها دليل جديد .

وأهم براهين المتكلمين على الإعجاز البلاغة والنظم البديع والمعاني الرائعة والإخبار عن الغيوب والأمور المستقبلة وغيرها مما سنراه بعد بالتفصيل . وقد ذكر بعض المتكلمين دليل الصرفة . والمتكلمون من الشيعة أكثر ايراداً له من المتكلمين من أهل السنة (راجع ترجمة القطب الراوندي في أعلام الشيعة) وهذا يثبت الرابطة بين أصحاب التشيع النظريين والمعتزلة وبخاصة المتقدمين منهم .

ويلاحظ في أبحاث المتكلمين بصورة عامة أنهم يخصون بعض صفحات من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كتبهم ليردّوا على الانتقادات التي قال بها غير المسلمين وأحرار الفكر بعد أن يتعرضوا لمسألة إعجاز القرآن .

وقد أفرد أبو الحسن عبد الجبار (الهمذاني) الأسعد آبادي المتكلم (٤١٥ هـ) لهذه الانتقادات والرد عليها كتاباً خاصاً شمر بالحاجة الماسة الى وضعه وسماه « تنزيه القرآن عن المطاعن » (وهو مطبوع في القاهرة سنة ١٣٢٩ هـ) .

ويرجع ما نعرفه من الإعجاز في علم التفسير الى نهاية القرن الثالث أو بداية الرابع وذلك لأنه لم يصلنا من التفاسير التي أُلفت في القرن الثاني الا اسماؤها وقد اضطر المفسرون الى الكلام في الاعجاز لأن القرآن يتكلم على التحدي في عدة مواضع منها الآيتان (٢١ ، ٢٣) من السورة الثانية وهي سورة البقرة وحفظ لنا من الكتب التي أُلفت في القرن الثالث كتاب ابن جرير الطبري المتوفى (٣١٠ هـ) في ثلاثين مجلداً كبيراً وهو عظيم القيمة وهو معلمة ضمّت الأخبار المتعلقة بالقرآن في عهده وكان مثالاً احتذاه المفسرون المتأخرون كلهم . وهو يناقش هذه القضية أثناء تفسيره آية سورة البقرة في التحدي (س ٢ آية ٢١ ، ٢٣) ويتكلم عنها بصورة بسيطة لبس فيها تعقيد الكلاميين الذي نراه في التفاسير بعده ولا يأتي ببراهين غير التي قدمها القرآن نفسه ويكتفي بشرح هذه الآيات .

وجاء على أثره من المفسرين الأولين حسن بن محمد القمّي (٣٢٨ هـ) وقد بقي كتابه وهو يناقش القضية في نفس الموضع ولعل من المهم أن نلاحظ الفروق في مناقشة هذه المسألة خلال ثلاثة أرباع القرن .

فالقمي يتبع في مناقشتها طريقاً أقرب الى طريق المتكلمين منها الى طريق المفسرين ويستعمل كل الاصطلاحات الفنية في علم الكلام مما يدل على أنه متكلم ومفسر معاً أو على أن علم الكلام قد مازج روحه الى جانب علم التفسير على حين أن ابن جرير الطبري مفسر فقط .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكان من تلاهم من المفسرين أكثر اتباعاً لطريقة القمي منهم لطريقة الطبري في هذه القضية أحياناً . وكثيراً ما نراهم يستمدون براهينهم من علم الكلام ولم يكن عمل القمي إلا بداية لسلسلة طويلة ، فلم يمض زمن حتى خرج التفسير عن ميدانه في هذه القضية وأصبح ميداناً لمناقشات علم الكلام ونظرياته وصار كل جانب يسعى لإثبات نظريته من القرآن فاستنبطوا من لغة القرآن البسيطة الخالية من الفلسفة كل الأفكار المحتملة وسعوا للتوفيق بين الفلسفة اليونانية وآيات القرآن .

ومن أشهر المفسرين الذين خاضوا في الإعجاز غير الطبري والقمي الراغب الاصفهاني (٥٠٢ هـ) في مقدمة تفسيره المنشور في نهاية كتاب تنزيه القرآن عن المطاعن لعبد الجبار الأسدآبادي المعتزلي (٤١٥ هـ) ، والزمخشري (٥٣٨ هـ) في « الكشاف » ، وابن عطية الغرناطي (٥٤٢ هـ) في تفسيره ، وفخر الدين الرازي (٦٠٦ هـ) في تفسيره وغيره ، وبدر الدين الزركشي (٧٩٤ هـ) في كتابه البرهان في علوم القرآن[1] وجلال الدين السيوطي (٩١١ هـ) في الإتقان في علوم القرآن ، وابن كمال باشا (٩٤٠ هـ) في تفسير وصل به الى سورة الصافات ، وأبو السعود (٩٨٢ هـ) في إرشاد العقل السليم ، والألوسي (١٢٧٠ هـ) في تفسيره « روح المعاني » ، ومحمد رشيد رضا في تفسير المنار « من الجزء الثاني حتى العاشر » ، وطنطاوي جوهري في تفسيره « الجواهر » .

(يتبع) نعيم الحمصي

(١) هذا الكتاب غير مطبوع وهو موجود في المدينة وفي مصر راجع مجلة المعارف المجلد ١٨ تاريخ ٦ ديسمبر سنة ١٩٢٦ م ص ٤١١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net